الدرس النحوي بين المياريية والواقع النحوي

Leçon de grammaire entre le langage et la réalité norme

رحال هشام*

Résumer:

Considéré grammaire comme la base de la langue, que des études révèlent que la religion établie de la réponse d'adieu est de maintenir le Livre d'Allah et la Sunna de Son Messager de distorsion, et de tenir la route à la compréhension d'une clarté et d'accessibilité, par des contrôles et des règles de la langue plaçant pour Ne conserver ces déséquilibres..an nature de la leçon de grammaire entre l'acquisition de commandes difficiles et faciles Pensez à l'apprenant de langue arabe, en particulier quand la réalité se heurte dominé par la mélodie à tous les niveaux de la langue, et ce est de faire aussi longtemps que l'étudiant et enseignant à une perte perdent leur pensée et leurs mots linguistique réaliste. Dans cette étude, nous essayons d'entrer dans les couloirs de cet environnement scientifique langue fertile fertilité désir d'éclairer spécialiste pour le problème sont ce vaste domaine de l'étudiant de la connaissance: Quel est l'ambiguïté de la leçon de grammaire? Est-ce le résultat de différences entre les concepts et la terminologie, ou est-ce lié à la nature de la langue qui était assis sur?, Et nos demandes de renseignements afin de surmonter cette difficulté et d'expliquer ses filiales.

اللغة هي الرابطة الخفية المتميزة التي تنظم أفراد الأمة، فهي روحها وسر كيائها وعنوان وجودها، وهي وسيلة للتفكير والتعبير والاتصال، بهذا تكون "اللغة من أهم النظم الحضارية التي تجعل الإنسان إنسانا، ولذلك فهي تستحق الاهتمام الشديد لأنها إحدى أهم مقومات بناء الإنسان، وبناء الأمة"¹بناءا سليما سلامة هذه النعمة الأزلية.

* طالب دكتوراه بجامعة بلعباس

¹ أحمد مدكور، فنون تدريس اللغة العربية، د ط، القاهرة، دار الشواف، 1991، ص 28

كما تعتبر أهم آلية في العملية تواصلية فهي " وسيلة الفرد في التفكير، فالفرد يستخدم الألفاظ والتراكيب والجمل في كلامه وكتابته، ويستمتع إليها من الآخرين ويقرأها في كتاباتهم"²، فيها يتعلم الإنسان من الآخرين ويكتسب المعارف في مجتمعه المحلي والعالمى، فمن خلال حفظ التراث والتواصل ندرك أن اللغة في المتعارف "هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانی ناشئة عن القصد لإفادة الكلام. فلا بد أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم، وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها كثير من المعاني"³ التي تأتي بالسليقة والفطرة السليمة.

الذاتية والمنهجية العلمية البحتة لا يلتقيان في البحث اللغوي، فالأولى قد يُعمى عليها بالهوى، بينما الثانية عقلانية بالمعنى العلمي، فإن قَدَّم الأول تسربت المغالطة إلى قيمة البحث، أما إذا حدث العكس جاءت النتائج سليمة معافاة، لذا قد يسمح المقام بالقول إنني أقدس اللغة العربية وأحرص عليها، وأسعى لرفعة شأنها تحدثًا وقراءة وكتابة، إلا أن المقام "يدفعني إلى الاعتراف بأنني حاولت الإخلاص للمنهجية العلمية في دراسة اللغة التي أحبها، وأنني غلّبت هذه المنهجية على الحب لأتمكن من تحليل ما قيل عن طبيعة"⁴ الدرس النحوي والصورة القائمة التي يثيرها عند الدارسين والمدرسين، وما مكن ذلك الغموض هل هو ناتج عن اختلاف المفاهيم والمصطلحات، أم الأمر متعلق بطبيعة اللغة التي وُعدَّ بها؟، وتساؤلنا هذا من أجل تفتيق الصعوبة وشرح فروعها. سؤال جوهري يطرح نفسه: ألا نرى الطالب اليوم يدرس العربية سنين طويلة، وبعد ذلك كله نراه عاجزاً عن إقامة لسانه والتعبير عن أفكاره بلغة صحيحة خالية من اللحن والأخطاء الفاحشة؟ من هنا نجد لزاماً علينا العودة إلى جذور هذه القضية في تاريخها الطويل، من خلال هذا التراث الضخم الذي نشأ في خدمة لغة القرآن الكريم، لغة العروبة والإسلام.

² المرجع نفسه، ص 36.

³ ابن خلدون، المقدمة، تح عبد الله محمد الدرويش، ط1، سوريا، دار البلخي، 2004، ص 367.

⁴ سمر روعي الفيصل، قضايا اللغة في العصر الحديث، د ط، الإمارات العربية المتحدة، وزارة الثقافة، 2009، ص 03.

تتركز ثقافة المجتمع في المستوى المعرفي ذو البنى المتينة التي قاعدتها القراءة، حيث "يجمع التربويون والدراسات جميعها بأن إتقان القراءة وتأصيلها كعادة يومية قد تكون المهارة الأهم في حياة أي إنسان، ذلك أن القراءة المستقلة هي وسيلة أساسية لاكتساب المعارف ولتوسيع أفق الفهم ولضمان النجاح الأكاديمي وللمتعة"⁵، إذ هناك إجماع على أن القراءة للمتعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً ومطرداً بالتحصيل العلمي، وأن الطلاب الذين يقرؤون بكثرة خارج إطار المنهاج المدرسي يحصلون على درجات أعلى في امتحانات القراءة والكتابة المقننة من نظرائهم الذين لا يقرؤون.

إن تيسير وتبسيط النحو يعني أن يقوم جمع من اللغويين بالنظر في عيون التراث العربي النحوي وقراءته وتبسيط تلك الكتب بحيث يتم استبعاد المفردات الصعبة الفهم، والتراكيب والصيغ المعقدة واستبدالها بمفردات بسيطة ومبتكرة. وتقوم عملية التبسيط على أساس القيام بانتقاء واحٍ لأمّهات الكتب النحوية، وإعادة صياغتها بلغة بسيطة بحيث لا يُحتاج معها الرجوع إلى هوامش أو معاجم لمعرفة مفرداتها، والعمل على إعدادها بشكل مُعزٍ وشيق إيجازاً وتقنية وتقديمها من حيث الأسلوب والشكل. وقد ظهرت دراسات مهمة تناولت النحو من وجوه متعددة، وفي مسالك مختلفة بعضها يقول بإحياء النحو، وبعضها ينادي بتسهيله، وأخرى تقول بتيسيره وتجديده.

مصطلحات مفاهيمية:

يعتبر النحو من اللغة بمكان، إذ ترجع الدراسات أنه أنشأ "استجابة لداع ديني هو الحفاظ على كتاب الله وسنة رسوله من أن يلحقهما تحريف، وإبقاء الطريق إلى فهمهما واستخراج مكنوناتهما واضحا ميسورا، وذلك بوضع ضوابط وقواعد للغة التي نزل بها القرآن وبها رويت ودونت السنة، بهدف حفظ هذه اللغة من كل فساد"⁶؛ ذلك أن العرب لما خالطت العجم بفعل الفتوحات الإسلامية، تبدلت تلك الملكة بما دخل إليها من لحن المستعربين؛ "والسمع أولى الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها لجنوحها إليه باعتياد السمع وخشي أهل الحُلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد فينغلق القرآن

⁵ العربية لغة الحياة، تقرير لجنة تحديث تعليم اللغة العربية، الإمارات العربية المتحدة ، 2012، arabicforlife.ae ص72.

⁶ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي دراسة نقدية، ط1، الكويت، دار القلم، 1985، ص 08.

والحديث عن الفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه⁷، مستخلصين ما سمي فيما بعد قواعد اللغة العربية، كالفاعل المرفوع والمفعول المنصوب والمبتدأ المرفوع، ومن وراءها تنبها لقضية الدلالة "بتغيير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعراباً، وتسمية الموجب لذلك التغيير عاملاً وأمثال ذلك، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"⁸. فهذا يكون النحو العربي هو المستنبط من كلام العرب بالاستقراء عن طريق النحويين الذين قاسوا عليه كلامهم، بينما الإعراب هو تغيير أواخر الكلم تبعاً لتغيير حركاتها إلا أن موجب الإعراب هو العامل من هنا أصبح لزاماً علينا التعرف على ماهية النحو، ثم المعيارية التي ارتبطت بالدراسات النحوية.

النحو المفهوم والتسمية:

عندما نخوض غمار أي قضية بحثية لا بد لنا أن نتعرف على ماهية علمها، لذا نحن في حلقة من حلقات العلوم العربية ألا وهو النحو إذ يقول ابن جني: "هو انتحاء سمّت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره... وهو (أي النحو) في الأصل مصدر شائع، أي نحوت نحواً، كقولك: قصدت قصداً، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقّهت الشيء أي عرفته، ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحرير"⁹، يعني أن المتكلم ملزم بإتباع قوانين كلام العرب حين يتحدث أو يكتب باللغة العربية؛ وبهذا يكون النحو تطبيق واقعي لما سمعه العربي واكتسبه بالسليقة من قواعد. ويرى ابن فارس في معجمه أن: "النون والحاء والواو كلمة تدل على قصد، ونحوتُ نحوهُ، ولذلك سمي نحوُ الكلام، لأنه يقصدُ أصول الكلام فيتكلم على حسب ما كان العرب تتكلم به"¹⁰، فالإتباع لقوانين العرب ذات المنطوق السليم يشترك ويتفق اللغويين عليه دونما اختلاق سوى من أراد الإغراق في التفصيل.

⁷ ابن خلدون، المقدمة، ص 368.

⁸ المرجع نفسه، ص 368.

⁹ ابن جني، الخصائص ج 1، تح محمد علي النجار، د ط، مصر، دار الكتب المصرية، 1952، ص 34.

¹⁰ ابن فارس، المقاييس في اللغة، تح شهاب الدين أبو عمرو، د ط، بيروت، دار الفكر، د س، ص 1018.

أما عن سبب تسمية هذا النوع من العلم نحو فنورد ما ذكره الزجاجي عن الدُّولي في علله بقوله: "أنه لما سمع كلام المولدين بالبصرة من أبناء العرب، أنكر ما يأتون به من اللحن لمشاهدتهم الحاضرة وأبناء العجم، وأن ابنة له قالت له ذات يوم: يابه ما أشدُّ الحرَّ، فقال لها: الرمضاء في الهاجرة يا بنية.. فقالت له: لم أسألك عن هذا، إنما تعجبت من شدة الحر. فقال لها: فقولي إذا ما أشد الحرَّ. ثم قال: إنا لله فسدت ألسنة أولادنا.. فوضع كتابا فيه جمل العربية ثم قال لهم: انحوا هذا النحو أي اقصوه، والنحو القصد فسمي لذلك نحو"¹¹، فشيوع اللحن بين الأعاجم وحتى عند بعض العرب كان الدافع الحقيقي للدُّولي لابتداع هذا العلم كي يصونهم ويصون لغة القرآن الكريم.

المعيارية: (من أساسياتها القياس والتعليل)

المنهج المعياري هو الطريقة المتبَّعة في صياغة الألفاظ والعبارات عن طريق القياس ومراعاة المستوى الصَّوابي في الاستعمال، فالنحاة العرب كانوا معياريين لأنهم "راعوا قياسا ومعاييرا، ثم حاولوا أن يفرضوا هذا القول وتلك المعايير فرضا منطقيا على كلام مدار القياس فيه على السليقة"¹² التي هي جبلة طبيعية في نفوس العرب، عفوية غير متكلفة، يتواصلون بها على مدار الوظيفة الدلالية بحكم الحس اللغوي المشترك. وبهذا يكون "المنهج المعياري قائما على فرض القاعدة أي يبدأ بالكليات وينتهي إلى الجزئيات... فهو يعتمد القاعدة أساسا وينأى عن الوصف ويتأول لما خرج عن القواعد التي يصوغها بإحكام شتى التأويلات، أو يحكم عليها بالشذوذ والقلة إن لم يجد فيه تأويلا مناسباً ولو كان بعيداً أو مستغرباً"¹³، لا يجد فيه مستعمل اللغة تذوقاً أصيلاً، هذا ما يحيلنا إلى أن النحاة يكونون قد مالوا إلى "تقديس القواعد، بعد أن كانت خاضعة للنص وأصبحت عباراتهم تبدو فيها المعيارية الصارخة"¹⁴، التي جعلت من الدرس النحوي العربي يتسم بالصعوبة أحيانا والغموض في أحيان أخرى، وبهذا تكون المعيارية هي التي دفعت بالنحو إلى الاهتمام بالصورة على حساب المادة "ذلك أن منطلق أرسطو يهتم بالصورة"

¹¹ الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح مازن المبارك، ط3، د ب، دار النفائس، 1979، ص89.

¹² تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط4، القاهرة، عالم الكتب، 2000، ص21.

¹³ علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، ط1، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ص23.

¹⁴ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، المرجع السابق، ص28.

أكثر من "المادة" ودرس اللغة ينبغي أن يركز على المادة لا على الصورة، وتأثير المنطق على النحو يبعده عن درس الواقع اللغوي كما هو¹⁵، لأن الواقع هو الفيصل في الدرس النحوي لأنه هو المنطلق السليم لتعلم لغة سليمة النطق والفهم. كل هذا يقودنا ويدفعنا إلى التعرف على بعض الصعوبات والمشاكل التي يتخبط في النحو رغبة منا في إيضاح بعضها.

صعوبات و مشاكل النحو:

لا يختلف اثنان على أن مشكلة وأزمة النحو العربي نابغة من ذات العلم، ذلك بسبب دخول العلوم الفلسفية عليه مما جر معها كثرة العلل، والأقيسة، والتأويلات والتقدير، والولع بالجدل، والمناقشات اللفظية في معظمها، والإغراق في الجري وراء العلل حتى "قال بعض أهل الأدب: كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئاً، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ومنهم من نفهم جميع كلامه، فأما من لا نفهم من كلامه شيئاً فأبو الحسن الرماني، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي، وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي"¹⁶، بهذا نستشف ما جُرَّ على النحو العربي على مر السنين، يأتي في مقدمتها تدوين النحو.

1- التقعيد النحوي:

اعتمد اللغويون في تقعيد اللغة وجمعها على معايير معينة حددها سلفا واتفقوا بموجبها والتزموا الحيطة العلمية التي تقي من الزلل، حيث وصل بهم الأمر إلى اعتماد قبائل محددة تنطبق عليها شروط الجمع وعنهم "نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذَ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم ائكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"¹⁷، والأمر نفسه فعله النحويون، لكنهم وقعوا في خلل واضطراب منهجي أثناء عملية التقعيد بسبب الخروج عن

¹⁵ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دط، بيروت، دار النهضة العربية، 1979، ص61.

¹⁶ الأنباري (أبولبركات)، نزهة الألباء في طبقات الأطباء، تح إبراهيم السامرائي، ط3، الأردن، دار المنار، 1985، ص234.

¹⁷ جلال الدين السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تح عبد الكريم عطية، ط3، دار البيروني، 2006، ص47.

واقع اللغة، والتقيّد بالمناهج والأفكار الجانبية التي لا تتلاءم والحقيقة اللغوية بمعناها الدقيق؛ إذ كثيراً ما كان علماء العربية يلجئون إلى "المنطق يلتمسون منه العون في تعقيده وضبط أحكامه، فجاءت بعض أعمالهم في هذا المضمار مخالفة للواقع اللغوي والاستعمال الحي للغة، الأمر الذي أدى إلى تعقيد بعض جوانب هذا النحو واضطراب شيء غير يسير من قوانينه"¹⁸، مما سبب نوعاً من النفور لدى المعلمين والمتعلمين على السواء بسبب الغموض الذي اكتنفه على مر السنين. ولربما "تَشَعَّبَت مناهج البحث عند هؤلاء النحاة، حتى ضاعت الغاية من وضع النحو فقد جعل الكوفيون كل شاذ ونادر قاعدة لنفسه، فانتشرت عليهم قواعدهم، ولم يعد لها ما يمسكها من نظام أو منطق"¹⁹. هذا ما يقودنا إلى القول إن نواحي الضعف تكمن في الأسس التي قام عليها منهج النحاة في تعقيد النحو، ويتجلى بعض ذلك في الخلط بين أكثر من مستوى لغوي، أو بين النصوص المرورية من فترات زمنية متباعدة أو عن قبائل مختلفة.

وقد أنتج هذا تداخلاً في المصطلحات على كثرتها، لأن "النحويين القدماء حين قعدوا قواعدهم أقحموا اللهجات العربية بصفاتها وخصائصها المتباينة، ونظروا إليها على أنها صور مختلفة من اللغة المشتركة، مما خلق مشاكل متعددة أيسرها اختلاف الأقوال في المسألة الواحدة، ومحاولة التوفيق بين المذاهب والشواهد المتناقضة، والإكثار من الأمور الجائزة، وكثرة التقسيمات والتشعيبات، والإسراف في وضع الشروط"²⁰، والتداخل في المصطلح هو نتاج صراع علمي بين مدرستي البصرة والكوفة، "حتى شاع بين الدارسين أن هذا مصطلح بصري وذاك مصطلح كوفي. كل ما أنتج ثلاث جهات الأول: ظهور مصطلح كوفي له دلالاته الخاصة وتفسيره في مقابل المصطلح البصري، الثاني: رفض الكوفيين لبعض المصطلحات البصرية وإقامة مصطلحات جديدة مكانها، الثالث: رفض البصريين لبعض ما جاء به الكوفيين من مصطلحات"²¹، الأمر الذي أهم في تكوين بيئة

¹⁸ كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، ط، القاهرة، دار غريب، 1999، ص 139.

¹⁹ عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث ط1، الأردن، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1986، ص 31.

²⁰ أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ط6، القاهرة، عالم الكتب، 1988، ص 146.

²¹ عوض أحمد القوزي، المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ط1، الرياض، عمادة شؤون المكتبات، 1981، ص 162.

علمية مضطربة وشائكة الفهم تتم عن تداخلات وصراعات علمية اكتتف من خلالها النحو الغموض والصعوبة.

إذاً يكون التداخل بين المصطلح والمناهج والتفريعات والتقسيمات "التي استعملت في وضع قواعد اللغة العربية نحواً وصرفاً ومعنى، وتفسيرها وتعليلها، آخذة بعين الاعتبار الشائع والنادر والقليل، من الأسباب التي ساهمت في تعقيد النحو وإظهاره بهذا المظهر المصطنع، الغريب عن العربية الشائعة الاستعمال، والغريب عن الذوق الجميل والمنطق السليم"²² الذي ينشده مستعمل اللغة والمقعد لها على حد سواء، الذين أخلصوا للغة بتأليف كتب جمعوا فيها ما وصلهم عن طريق السماع، إضافة إلى ما أمدتهم به قرائحهم عن طريق التأثر.

2- التأليف النحوي:

ظهرت بواكير التأليف النحوي كغيره من العلوم، في النصف الأول من القرن الثاني الهجري (2هـ) حيث أصاب الدراسات النحوية في تلك الفترة أمران: "أولهما: زيادة الاهتمام بالنحو وظهور محاولات لمعالجة، أو تصحيح ما يقع من مخالقات أو خروج عن قواعده. ثانيهما: ظهور لون من الدراسة المفصلة التي تتناول بالشرح والتعليل الظواهر النحوية، بالإضافة إلى شيوع قياس على نمط القياس الفقهي الذي كان شائعاً قبل ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية"²³، فبالإلقاء نظرة عن كثب على تلك الدراسات يتبين لنا أن جميعها يمكن أن تصنف إلى صنفين يمثل أحدهما التعمق في دقائق النحو "وهي دراسات تتجه أحياناً إلى دقائق المعارف النحوية كل ما هو شاذ وناذر، حتى يصبح النحو مهنة يحصلون بها معاشهم، من سر المهنة أن يوغل في التعقيد والغموض. وتنتج دراسات النحو أحياناً أخرى إلى صياغة الفكر العقائدي للفرق الإسلامية وتواكب مسيرة المذاهب الإسلامية، حيث تحرص جميع الفرق والمذاهب على أن تجد مستنداً لها في النص القرآني والحديث النبوي الشريف"²⁴ وهما أمران جعلتا النحو العربي على هذه الصورة من التعقيد والغموض وعسر الفهم، ينفر منه الناشئ ويبتئيه في مسالكه المتعلم الحاذق.

²² عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص 101.

²³ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، مرجع سابق، ص 08.

²⁴ عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، المرجع السابق، ص 36.

وعلى هذا المنوال حظيت بعض الكتب النحوية بشهرة لا مثيل لها، فما ظهر كتاب إلا وتسبق "الدارسون في شرحه والتعليق عليه، ثم في اختصاره ووضع المتن له ثم تشرح هذه المتن ويُعلّق على شروحها، وتعود الدورة ثانية من حيث بدأت"²⁵ وهو أمر حدث مع كتاب سيوييه "إذ آمن النحاة بعد اطلاعهم عليه بأنه أوفى على الغاية، ومن ثم رضوا به إماما وقنعوا لأنفسهم بمكان التلمذة والخدمة، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن توقفت الدراسات النحوية في إطار كتاب سيوييه"²⁶ الذي هو كتاب صعب المراس مما انعكس سلبا على الكتب التي نحت منواله كـ "المقتضب" للمبرد، و"المفصل" للزمخشري، وهي كتب عرفت بالاستطراد في الشرح، والتكرار، والحشو.

3- لغة كتب النحو:

يَحظى المُقلِّب للكتب النحوية التراثية على اختلاف مشاربها، أنها ذات ميزة خصبة خاصة على المستوى اللغوي، لكن هذا يعتبر حسنة وليس عيباً أن تكون لكل لون من البحوث لغته الخاصة به والملائمة لموضوعه، إلا أن "لغة الكثير من كتب النحو القديمة يعيبها ما فيها من جفاف والتواء ومبالغة في التكتيف إلى حد الغموض والانطماس أحيانا"²⁷ وكله مردّه إلى إظهار البراعة والتفوق، وهذا ما أدى إلى نتيجة طبيعية ذلك "أن أصبحت البراعة في النحو صناعة لا صلة لها - عند الأغلبية- باستخدام اللغة أو التعرف على ما فيها من إمكانيات تعبيرية"²⁸ وهذا ما أدى إلى ظهور اتجاهين: اتجاه يجعل العالم من مهنة النحو معاشا له، واتجاه آخر يهدف إلى محاولة تيسير النحو وتسهيله لتحقيق أغراض المخاطبة الصحيحة وتوفير ما يحتاج إليه الإنسان في قراءة الكتب وفهمها، حيث ظهر اختلاف جوهري بين منهج يهدف إلى دراسة جزئيات النحو ودقائق اللغة، وبين منهج يهدف إلى تيسير تعليم اللغة للناشئين والراغبين في تعلمها، وكل هذا أدى إلى نوع من التداخل بين الغايات العلمية والتعليمية في كتب النحو، مما خلق الصعوبة والغموض في تناول مادة النحو عند المعلم والمتعلم على حد سواء. ولعل

²⁵ مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ط2، لبنان، دار الرائد العربي، 1986، ص29.

²⁶ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، مرجع سابق، ص10

²⁷ المرجع نفسه، ص27.

²⁸ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، المرجع السابق، ص28.

في بيئة جامعي اللغة ومقّديها من البساطة والتمكين بين اللغة والنحو، إذ كانت جهودهم في ميدان جمع اللغة وتمحيص نصوصها ودراستها لاستخلاص القواعد منها، كما كانت لهم جهودهم في مجال وضع أسس النحو وقواعده على أساس ما توصلوا إليه في الميدان اللغوي²⁹ الذي يعتبر المنطلق لمثل هذا النوع من الدراسات.

صعوبة لغة الكتب النحوية التراثية قادة ثلثة من العلماء³⁰ إلى تأليف كتب ذات لغة بسيطة تسهل على المتعلمين دراسة هذا العلم؛ ويكون الزبيدي (ت379هـ) الذي اُتسم بسعة الإطلاع، جاعلا صوب عينيه الرأي الأقرب إلى تحقيق الأهداف العلمية من تعلم النحو، متجاوزا تعقيدات النحاة وإيراد الآراء المتضاربة؛ قد تنبه إلى قضية لغة التأليف، إذ جعل من لغة كتابه "الواضح" سهلة على المتعلمين إذ أدرك بسعة اطلاعه وثاقب رأيه أن قضية "التداخل بين مفهوم الاستشهاد بالنصوص القرآنية وبما يجوز الاستشهاد به من الشعر والنثر، وبين مفهوم الأمثلة من الجمل والتراكيب السهلة الشائعة، قد أسهم في إثارة الاضطراب والغموض في مناهج النحاة القدامى والمحدثين، ونأى بالنحو التعليمي عن نفوس الناشئة ومجال اهتمامهم"³¹ فالاستشهاد بالآيات القرآنية والأشعار والأمثال وفصيح النثر ربما يزيد الأمر تعقيدا على المتعلم، في حين أن التراكيب الصحيحة من الأمثلة السهلة التي تتبع من اهتمامات المتعلم وبيئته، هي وحدها التي تستطيع أن توضح القواعد اللغوية وتجعلها أقرب إلى نفسه وأكثر اتصالا بحياته.

4- المنطق الأرسطي:

لا نستطيع أن نغفل البتة حق العقل العربي في الاختراع والإبداع، الذي يكشف عن أصالته، كما يظهر عن كونه فكرا غير معزول وإنما هو فكر يؤثر ويتأثر، شأن الثقافة في كل عصر من عصور الازدهار، هذا ما قادنا إلى أن "ذيع المنطق الصوري - الأرسطي- (منذ ق2هـ) كمنهج للبحث والجدل في قضايا العلوم العقلية وظهور فاعليته

²⁹ عبد الوارث ميروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، مرجع سابق، ص28.

³⁰ الجمل في النحو للزجاجي (ت340هـ)، الواضح لأبي بكر الزبيدي الإشبيلي (ت379هـ)، اللّمع في العربية لابن جني (ت392هـ).

³¹ عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص52.

في المجادلات الكلامية، مما حفز النحاة - وكانوا في جدل ومناظرات كعلماء الكلام³² - على الأخذ به. والمنطق الصوري فكر مجرد لا يفيد واقع، وهو يفتح أمام العقل مناهات يجد فيها مجالا رحبا لاستهلاك الوقت والطاقة في مناقشات اجترارية في معظمها "وهو ما أغرق النحاة في قضايا منطقية مجردة لا تسمن ولا تغني من جوع حتى انفلتت المنهجية العلمية البحتة لوصف اللغة وتقيدها، وتيسيرها لمُتعلميها بسبب الولع بالجدل والمناقشات اللفظية في معظمها والإغراق في الجري وراء العلل.

ولعل القياس³³ الذي هو مبدأ مشروع في كل العلوم لكن بشروط، إلا أن علماء العربية بالغوا في تطبيق هذا المبدأ وبالغوا في الالتزام بأحكامه، حتى لقد كانوا يقبلون ما يجيزه القياس المنطقي وإن لم يرد به سماع، ويفضلون لغة قبيلة على لغة قبيلة أخرى على أساس من القياس، لا على أساس الظواهر اللغوية³⁴ التي عاشت وعاشها العربي منذ نعومة أظافره وفصاحة بيئته. إلا أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، وإنما أدى إلى "ظهور رد فعل تمثل في عدة محاولات لتخليص النحو من هذا الركام الذي غطى عليه تارة بعرضه مختصرا خاليا من المناقشات وتارة بالابتعاد به قدر الطاقة عن المنطق وأسلوبه"³⁵ وكدليل على هذا الكلام بين أيدينا المتون النحوية على كثرتها واختلاف مشارب علماءها، إلا أنها لم تحقق الهدف المنشود من وراءها، لأنها زادت الطين بلة بسبب شدة الإيجاز والتعظيم المعنوي بسبب اللغة التي اكتتفها الإلغاز.

فالقياس الصوري بيئته العلمية المنطق، لكن تناوله النحاة الأوائل بحكم فطرتهم وسجيتهم، مقارنين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التي تلنقي فيها، توسع فيه من جاءوا بعدهم، فجعلوه منهجا ذا قواعد ومعالم محددة عدوه منبعا رئيسيا تستمد منه القواعد النحوية، وربما حكموه في لغاتهم فيقولون أن لغة أقيس من أخرى، وأن تعبيراً ما

³² ظهرت اتجاهات الاعتزال واضحة عند أئمة القياس في النحو مثل: سييويه، والفراء الذي يقول عنه ياقوت: "أنه يميل إلى الاعتزال وكان ينقل في تصانيفه ويستعمل فيها ألفاظ الفلاسفة (في نقد النحو العربي، صابر بكر أبو السعود، ص115)، وأبي علي الفارسي، وابن جني، والزمخشري.

³³ هو أن تقيس ظاهرة ما على ظاهرة أخرى متمثلة في النص (اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان ص26)

³⁴ كمال بشر، اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، مرجع سابق، ص140.

³⁵ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، مرجع سابق، ص12.

يجيزه القياس وإن لم يرد به السماع³⁶ حتى أصبح كيان اللغة مصيره بيد القياس، هو الأصل وإليه الحكم، إذ لا شك أن عملية الصوغ القياسي عملية معيارية إلى أقصى حد³⁷ لكن ما جرّه وبال القياس الأرسطي لم يتوقف عند ذلك، وإنما استمر إلى قضية العلة أو التعليل، وكانت النتيجة أن "حلت الدراسة التعليلية في النحو محل الدراسة الموضوعية الوصفية وتحولت مباحثه إلى ما يشبه القضايا التجريدية حتى كادت المادة اللغوية تختفي في غمرة التعليلات، فلست ترى حكما نحويا ولا قاعدة من قواعد النحاة إلا لها تعليل يطول أو يقصر، ويعتدل أو يلتوي، على حسب مقدرة النحوي وتمكنه من زمام اللغة والجدل ورغبته في إظهار البراعة"³⁸ التي قادت الدرس النحوي على مر السنين إلى الصعوبة والغموض على الدرس والمُدرس على حد سواء؛ ولو توقف النحاة عند ما تعارفت عليه العرب من علل بسيطة توضيحية لها قيمتها العلمية إذ يتمرس بها متعلم اللغة ويتأمل بها المبتدئ فيها، وهي ما أطلق عليها "العلل الأولى" أو "العلل التعليمية"، وهي التي يعرف بها كلام العرب ويعرف بها ضبطه حتى وصل بهم الأمر إلى تأويل نصوص القرآن الكريم حفاظا على عللهم ومسايرة لها.

ربما يسعنا القول إن "سيطرة المنطق السوري وما تولد عنه من الإغراق في التجريد والتعليل، هي المسئولة عن عدد كبير من عيوب النحو العربي وصعوباته وعلى رأسها: كثرة الخلافات بين النحاة، فالمنطق والتعليل ينقلان البحث من منهج لغوي إلى قضايا تجريدية، والتجريد يفتح بابا واسعا أمام وجهات النظر التي تتعدد وتختلف، وقد تتعارض لعدم ارتباطها بواقع محدد ومن ثم قيل إن النحوي لا يخطئ"³⁹ منطلقين من فكرة مفادها أنه ليس في الإمكان أكثر مما كان، مما أخرجهم عن المحدود فعاد وكأنه من فروع المنطق أو من مباحث الفلسفة لا ذوق فيه ولا حياة، ما جعل المنطق الأرسطي عرضة للنقد والتجريح.

³⁶ المرجع نفسه، ص30.

³⁷ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مرجع سابق، ص43.

³⁸ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، المرجع السابق، ص31.

³⁹ عبد الوارث مبروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، مرجع سابق، ص32.

نقد المنطق الصوري:

لم يسلم المنطق الصوري منذ تغلغل إلى عمق الدراسات اللغوية التراثية من النقد من قبل علماء ذاع صيتهم بين الحقول المعرفية على اختلافها في الدرس النحوي فهذا أبو علي الفارسي يقول عن الرماني (ت384هـ) وكان معتزليا يأخذ بالمنطق كثيرا في دراسته للنحو: "إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء"⁴⁰ ولا نحسب في كلام أبي علي انتقاصا وتقليلًا من قيمة الرماني لأنه يعرف منزلته العلمية، وإنما كلامه موجه إلى منهجه في النحو، وطريقته في تناول موضوعاته. كذلك ما نجده عند ابن ولّاد المصري (ت232هـ)، الذي كان له رأي صريح في تحكيم القياس في النحو وذهب إلى أنه "لا يصح الطعن على العربي، أو رميه باللحن أو الخطأ، أو تقديم القياس النظري على العادة المسموعة... وأنه يجب الوقوف عند المادة اللغوية المسموعة ولا يجوز تصحيح ما لم يرد عن العرب بمقتضى القياس النظري... وأن سبيل النحويين إتباع كلام العرب إذ كانوا يقصدون إلى التكلم بلغتهم، فأما أن يُعملوا قياسا - وإن حسن - يؤدي إلى غير لغتها فليس لهم ذلك"⁴¹ وحتى ابن ولّاد هاجم التأويل والتقدير في النحو وأدّعاء الحذف والإضمار، والأمر نفسه نجده عند أبي جعفر النحاس في كتابه التفاحة الذي تجنب فيه التعليل والتأويل والتقدير والأبواب غير العلمية. (الميل إلى درس النحو بأسلوب المنطق وقع فيه ومال إليه المشاركة، أما الحمل على المنطق فجاء من قبل المغاربة والأندلسيين بالخصوص).

إلى هنا نصل إلى فكرة مفادها "أن النحو والمنطق بالرغم من اتصالهما في بعض النقط هما في أساسهما مختلفان تمام الاختلاف، والمفروض أن نحو أية لغة إنما يقرر القواعد التي تنبني على أساسها الجمل من عناصر كالكلمات وأجزائها، أما الهدف الرئيسي للمنطق فالمفروض أنه وضع القوانين التي تستتبط بها الأحكام من أحكام أخرى، أو بعبارة أخرى تستخرج بها النتائج من المقدمات"⁴² لا جعله سيفًا على رقبة اللغة، ما يتوافق معه فهي لغة صحيحة، وما يتضاد معه سلّطه عليه.

⁴⁰ محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط3، مصر، دار المعارف، دس، ص170.

⁴¹ عبد الوارث ميروك سعيد، في إصلاح النحو العربي، مرجع سابق، ص48.

⁴² تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مرجع سابق، ص32.

إضافة إلى أن جهود الأوائل لم تستطع القضاء على الصعوبات، ذلك لأنها لم تبدأ بحثها من جذور المشكلة، أي الأسباب التي تقف وراء مظاهر القصور والتعقيد التي اتسم بها الكتاب النحوي آنذاك، وإنما اتجهت بجهودها إلى المرحلة النهائية أو إلى المشاكل ذاتها من حيث صلتها وتأثيراتها المباشرة على العملية التعليمية، هذا فضلا عن الإعجاب الشديد بكتاب سيبويه من سيئ الأثر على تلك الجهود، كله ساهم في إيقاظ بعض الهمم التي سخرت قلمها للتيسير والتجديد في الدرس النحوي.

دعاة التيسير في العصر الحديث:

منذ منتصف القرن التاسع عشر، والأصوات تتعالى في مجال اللغة العربية، بأنه آن الأوان إلى تسير النحو، خاصة أن حاجة الدارسين أصبحت ماسة إلى كتاب يستوفي قواعد النحو على الوجه المعمول به عند الجمهور، دون الخوض في الاستطراد والتداخل، والالتواء و إيراد الأقاويل المتناقضة، والآراء المتباينة لما في ذلك على حد قولهم من إبعاد الشقة على الطالب، وتشتيت ذهنه بتشعب الوجوه والمذاهب وغموض الفكرة وجفاف المادة وانقطاع الصلة بالواقع الحي.

ولو تتبعنا تلك الدعوات نجدها لا تنفك تدور بين مصطلحات: التيسير والتجديد والإحياء ثم إنها في واقع الأمر لا تخرج عن كونها نظرات اجتهادية في تفضيل مصطلحات نحوية تراثية على غيرها من المصطلحات التراثية أيضا، وكذلك في إعادة التبويب والتصنيف، وأنها نظرت إلى التراث النحوي نظرة واسعة دون أن تلتزم بمذهب نحوي معين.. وعالجت قضايا النحو من حيث المنهج والوسائل والمصطلحات⁴³ ومرد هذا إلى اختلاف مشاربيها العلمية وبيئاتها العقلية التي تأثرت بها. وقد انتقينا بعضها لشهرته في الساحة العلمية وهي:

• "إحياء النحو" لـ إبراهيم مصطفى الذي يقول: "ولقد بذلت في تهوين النحو جهود مجيدة، واصطنعت أصول التعليم اصطناعا بارعا، ليكون قريبا واضحا على أنه لم يتجه أحد إلى القواعد نفسها وإلى طريقة وضعها، ويتساءل: ألا يمكن أن تكون تلك الصعوبة من ناحية وضع النحو وتدوين قواعده"⁴⁴ والأمر متعلق بفكرة التعقيد النحوي التي أنزلها

⁴³ عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص 87.

⁴⁴ إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مرجع سابق، ص 2.

من قبل، إلا أنه "إذا استثنينا بعض الآراء الاجتهادية نجد المؤلف لا يخرج في منهجه العام في كتابه عما اختطه بعض أئمة النحو من السلف لاسيما الزجاجي"⁴⁵، لكن يُحسب للرجل أنه اجتهد وحاول.

• "تجديد النحو" لشوقي ضيف لعله "يكون منعطفاً جديداً على طريق تيسير قواعد العربية. فقد نظر مؤلفه إلى النحو نظرة كلية شاملة، وأقام دراسته على أسس نظرية وعملية معاً، فكان النقد والتحليل للآراء النحوية، أساس لإعادة التوبيب والحذف والإضافة"⁴⁶ التي كانت طريقة لمحاولة إخراج الدرس النحوي من الغموض الذي اكتنفه أثناء التععيد أو طغيان المد المنطقي عليه.

• "في النحو العربي نقد وتوجيه" ل مهدي المخزومي الذي يرى أن عملية تيسير الدرس النحوي ليست في إبراز عضلات القلم في الاختصار ولا الحذف من الشروح والتعليقات والحواشي، وإنما تقديم موضوعاته في يسر، حيث يرى أنه لن يتم ذلك إلا بتخليص الدرس النحوي مما علق به من شوائب جرّها عليه منهج دخيل، هو منهج الفلسفة الذي حمل معه إلى هذا الدرس فكرة العامل والثانية أن نحدد موضوع الدرس اللغوي، ونعين نقطة البدء، ليكون الدارسون على هدى من أمر ما يبحثون"⁴⁷ وهو أمر سعى ويسعى إليه البحث النحوي في العصر الحديث من أجل تقريب النحو من الدارس والمدرّس.

• "النحو العربي والدرس الحديث" ل عبده الراجحي الذي يرى فيه أننا أحوج إلى البحث في المنهج وبخاصة عند نحاة العربية، ويرى أن "رفض الجديد من مُنطلق الجهل به شيء لا يقبله علم، ولا تقبله الطبيعة الإنسانية، بل لم يقبله النحو العربي في تاريخه الطويل، من هنا كانت هذه المحاولة في هذا البحث: أن أنظر في أصول المنهج النحوي عند العرب، ثم نظر فيها على ضوء المناهج الحديثة"⁴⁸ التي يرى في النظرية التحويلية ل نوم تشومسكي، ثم للجوانب التحويلية في النحو العربي، حيث يقول: "عرضنا لجوانب

⁴⁵ عبد الكريم خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص 91.

⁴⁶ المرجع نفسه، ص 95.

⁴⁷ مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، مرجع سابق، ص 16.

⁴⁸ عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، د ط، بيروت، دار النهضة العربية 1979 ص 06.

الوصفية في النحو العربي، ونعرض الآن للجوانب "التحويلية" فيه، وهي في الحق أغلب عليه، لأن هناك أصولاً مشتركة بين المنهجين أهمها صدور النحو العربي في معظمه عن أساس عقلي⁴⁹ وما سيزيد الطينة بلة، أن يوضع النحو في دائرة الأخذ والرد، والردود والمساجلات بين النحاة والباحثين، يصبح في مشكلة المناهج الغربية الحديثة التي لا تخدمه بل بالعكس تحاول النيل منه.

• "اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية" ل عبد القادر الفاسي الفهري الذي يدعو إلى الاستفادة من النظريات اللسانية الحديثة في تجديد النحو وضرورة التزام المنهج العلمي السليم في انتقاد التراث أو وصف الظواهر اللغوية ويقدم في كتابه نماذج تطبيقية للغة العربية مستفيداً من النظريات اللسانية الحديثة التي تحولت إلى العناية بالنحو على وجه الخصوص؛ ويجد أن النحو التقليدي لا يزودنا بكل ما نحن في حاجة إليه، بل لا نحتاج بالضرورة إلى مفاهيم القدماء وأصولهم "وأن الآلة الواصفة الموجودة عند القدماء ليس لها أي امتياز في وصف العربية، بل هي غير لائقة في كثير من الأحوال"⁵⁰ ولكن يمكن ذكر آراء النحويين على سبيل الاستئناس.

خاتمة

انطلاقاً من قول تمام حسان الذي يعتقد فيه "أنه لمن الغبن أن تحمل العربية أوزار الناطقين بها، فالنحو عماد اللغة لا يمكن أن يفصل عنها واللغة تحيا بالاستعمال ولا تحيا ببطون الكتب"⁵¹ نستطيع الجزم بأن المشكلة ليست مشكلة مصطلحات ومسميات، وإنما هي مشكلة واقع لغوي في استعمال اللغة، فالنحو وسيلة للتعبير السليم والفهم السليم وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر الفروع الأخرى للغة، وهو مبدأ قرره ابن خلدون قبل 6 قرون مضت، ثم إن الغاية ليست دراسة القواعد مقصودة لذاتها ولكنها وسيلة تعين الدارس على تقويم لسانه وعصمة أسلوبه من اللحن والخطأ، حيث كان الهدف منه وظيفياً هو تقويم اللسان، أصبح الهدف منه تعليمياً هو حفظ القواعد النحوية. لربما مردّ الأمر إلى

⁴⁹ عبده الراجحي، النحو العربي، المرجع السابق، ص143.

⁵⁰ عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، ج3، ط4، الدار البيضاء، دار توبقال، 2000، ص32.

⁵¹ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص122.

أن الإنسان العربي "أصيب بالكسل العقلي، لأنه يعتمد على المشاهدة والسماع لوسائل الإعلام، وأمسى الإنسان المثقف قارئاً سريع القراءة، بمعنى أنه اعتمد على القراءة الصحفية، وهي قراءة تتسم بالسرعة لأحداث يومية وأفكار تتسم بالخفة وعدم التعمق في كثير من الأحيان"⁵² فليست القضية إذا مرتبطة بالنحو العربي فحسب وإنما تدب جذورها في كل عناصر الثقافة ككل.

⁵² مهدي المخزومي، في نقد النحو العربي، ص31